وزارة التعليم العالي والبحث العلمي المادة : التداولية

جامعة الانبار – كلية الآداب أستاذ المادة : أ.د. علي حسين

قسم اللغة العربية - الدراسات العليا (الدكتوراه / لغة) (٢٠١٩ - ٢٠٢٠)

الفصل الثاني المحاضرة : (الرابعة)

(الخطاب اللغوي في وسائل التواصل الاجتماعي من وجهة نظر تداولية)

ملخص المحاضرة :

صلب المحاضرة حول تعداد الاستعمال اللغوي أو تداولية الخطاب اللغوي في وسائل التواصل الاجتماعي من خلال نماذج تطبيقية على بعض الصفحات التواصلية لاسيما(faceBook) ، فطبيعة الخطاب الجديد الطارئ على اللغة العربية ودارسيها يتميز بخصائص كثيرة كالسرعة في الأداء واختلاس الحروف وحتى الكلمات فهي التي تُجيز للمتكلمين ذلك ، هو جنس خطابي شبيه بالاستعمال الشفوي وأنه من مشمولات الدراسة التداولية ، فطبيعة الخطاب الاستعمالي للغة يسمح به ، والتداولية علم يهتم بدراسة اللغة الإنسانية في الاستعمال وطبيعة هذه المحاضرة تقرب بين اللهجات المحلية في مجتمعاتنا العربية ؛ لأن وسائل التواصل الاجتماعي غدت وسيلة إعلامية عابرة للحدود تعمل على تلاقي الأفراد الذين لا تربطهم العلاقات الاجتماعية بعضهم مع بعض فلا بد من فهم الخطاب المتداول بينهم ولاسيما إن خرج عن اللغة الفصيحة كبعض أساليب التهكم المستعملة في صفحات الفيس –مثلا-في المجتمع العراقي ، ومن ذلك قولهم (مايكعد =يقعد راحة آينشتاين) خطاب من شخص متهكم لآخر أبدى رأيه في قضية علمية وهو لا يفقه شيئا ، ومعناه الشخص الذي أبدى رأيه (ما يقعد راحة) أي: يتحدث كثيرا عن العلم كأي عالم تطرح أمامه قضية علمية فلابد ان يتدخل ؛ لتصحيح مفهوم أو إقراره ، ثم شبه بآنيشتاين ،فحذف أداة التشبيه إيغالًا في التهكم .

مقدمة

يتمحور البحث حول تعدد الاستعمال اللغوي ، أو تداولية الخطاب اللغوي في وسائل التواصل الاجتماعي من خلال نماذج تطبيقية على بعض الصفحات التواصلية كالفيس بوك (face Book) ونحوها ، وهو ما يمكن أن يدخل تحت باب أحدث العلوم اللغوية نوعا ما وهو التداولية.

والذي يتغياه البحث الولوج إلى الميدان الذي يتيح للعربية استيعاب الخطاب الإعلامي المعاصر ضمن ثنائية الالتزام بالخصائص اللغوية العربية من جهة ، والانفتاح على المساحات التي تسمح بالاجتهاد اللغوي من جهة ثانية ، وطبيعة الخطاب الجديد الطارئ على اللغة العربية ودارسيها ، فهو يتميز بخصائص كثيرة كالسرعة في الأداء واختلاس الحروف والحركات وحتى الكلمات ... فهي التي تُجيز للمتكلمين ذلك ، وهو جنس خطابي شبيه بالاستعمال الشفوي للغة ؛ وإن هذا من خصائص الخطاب الشفوي وخطاب وسائل التواصل الاجتماعي في كل اللغات البشرية ، وهو من مشمولات الدراسة التداولية ، فطبيعة الخطاب الاستعمالي شبه الشفوي للغة وهو الذي يسمح به ، ومعلوم أن التداولية علم يهتم بدراسة اللغة الإنسانية في الاستعمال ، ولكي نجيب عن تساؤل مطروح وهو : إلى أيّ مدى تم تشخيص طبيعة العقبات التي تحول دون التوظيف اللغوي السليم في المساحات الإعلامية المختلفة ومنها المدونات الإلكترونية ؟ ثم إنّ التداولية أضحت ثالث ثلاثة أضلاع التقسيم اللغوي الجديد ، بعد تقسيمات البنيويين ورائدهم سوسير ،وتقسيمه اللغة على المستويات المعروفة كالصوتية والصرفية والنحوية وغيرها ، وبعد ظهور مدارس أخرى وأهمها التداولية ، فقد اختلف

التقسيم ، وأصبح تقسيمًا ثلاثيّاً يشتمل على النحو (Grammar)،والدلالة (Semantics) ، والتداولية (Pragmatics) ، فالنحو له وظيفة تتمثل في دراسة العلاقات بين الأبنية في التركيب ،وتقوم الدلالة بدراسة علاقة الأبنية النحوية بمعانيها ،أما التداولية فهي علاقة اللغة بمستعمليها ، والموروث اللغوي العربي غني بكل ما يمكن أن يواكب التطور الكبير الذي أصاب حقل اللسانيات ، ومنها الجانب التداولي ، وهو درسٌ لا يزال غزيراً حيويّاً منتجًا يمد ساحة الدراسات اللغوية والمعرفية بأفكار ومفاهيم ورؤى جديدة ،وغير ذلك من الأمثلة الخطابية الكثيرة في وسائل التواصل الالكتروني التي تخرج عن أصل وضعها إلى معان أخرى بما يحقق الجانب التداولي ،وهو اللغة قيد الاستعمال لا في أصل الوضع .

ومن الفوائد المجتناة من هذا البحث أنّه يقرب بين اللغات المحلية في مجتمعاتنا العربية ؛ لأنّ وسائل التواصل الاجتماعي لم يعد الاسم ينطبق عليها تماماً ، بل غدت وسيلة إعلامية عابرة للحدود بين الدول ، وأصبحت تعمل على تلاقي الأفراد الذين لا تربطهم العلاقات الاجتماعية بعضهم ببعض ؛ فلا بدّ . والحالة هذه . من فهم الخطاب المتداول بينهم ولا سيما إن خرج عن اللغة العربية الفصيحة ، ومن ذلك بعض أساليب التهكم المستعملة في صفحات الفيس . مثلاً . في المجتمع العراقي ومن ذلك قولهم (ما يكعد =يقعد راحة آينشتاين) خطاب من شخص متهكم لآخر أبدى رأيه في قضية علمية وهو لا يفقه شيئاً في العلم ، ومعنى الخطاب أنّ هذا الشخص الذي أبدى رأيه (ما يقعد راحة) أي يتحدث كثيراً عن العلم ، حاله حال أي عالم تطرح أمامه قضية علمية فلا بد أن يتدخل لتصحيح مفهوم أو إقراره ، ثمّ شبهه بآينشتاين العالم المعروف ، وهنا حذف أداة التشبيه إيغالاً في التهكم ، فمثل هذه الجمل تتوفر على الجانب التداولي ؛ لأنّ معناها الحقيقي يختلف عن معناها الوضعي في لسان العرب ؛ لأنّ المعنى الوضعي ل(ما يقعد راحة) هو يثير المشاكل ، ومعنى (آينشتاين) معروف ، إلاّ أنّ الجانب التداولي أخذنا إلى الجانب التهكمي بالمخاطب ، وابتعد عن المعنى اللغوي الحرفي للجملة وهو غير مفهوم لكل قارئ ، والبحث يسلط الضوء على دراسة خروج الألفاظ عن معانيها الموضوعة في لسان العرب ، ويقربها بين أبناء المجتمعات العربية .

المبحث الأول

الجانب المفاهيمي للتداولية

إن المورث اللغوي العربي غزير بما يمكن أن يواكب التطور الكبير الذي أصاب حقل اللسانيات ولاسيما التداولية (وهو درس لايزال غزيراً وحيوّياً منتجاً يمد ساحة الدراسات اللغوية والمعرفية بأفكار ومفاهيم ورؤى جديدة) وهو أمر موجود عند اللغوين الأوائل ، فقد كانوا على علم بالتداولية ، وهي مطبقة بالفعل في كتبهم ،وهي –أي التداولية-(او اللغة في الاستعمال مصطلح قديم جديد ؛ قديم النشأة وللاستعمال ، جديد التنضير والتقعيد) وهو رأي يمكن معارضته بأن المصطلح جديد ، وأما قضايا هذا المنهج وتطبيقاته فقديمة ولكنها مباحث مشتتة موزعة على علوم مختلفة .

الحديث عن التداولية حديث بقدر ما هو حديث شائق فهو حديث متشعب وذو شجون كما يقال ؛ لأنّها أضحت من العلوم اللسانية الحديثة التي تجاوزت البنيوية والمواريث السوسيرية فضلاً عن انفتاحها على الكثير من العلوم الأخرى كالفلسفة والاجتماع والنفس وسواها ، فهي فضاء رحب يختلف عن العلوم الأخرى المقيدة بقيود عدة ، وهذا ما يعطي الباحث الحرية في الانطلاق وعدم التخوف ، وإن ما يُجَرّئنا على الخوض في مجال التداولية أنّها لا تنتمي إلى أيّ من مستويات الدرس اللغوي المعروفة ، الصوتية أو البنيوية الصرفية أو التركيبية النحوية أو الدلالية .

<u>التداولية في اللغة :</u>

التداولية لغة مشتقة من الفعل (تَداولَ)زنة (تفاعَلَ)، وهذه الصيغة تدل على المشاركة من أكثر من واحد مثل(تشاجَر القومُ وتضاربوا)، أمّا الأصل اللغوي للتداولية ، فهو من مادة (د و ل)وإذا ذهبنا إلى ابن منظور (٧١١هـ)نجده يتحدث حديثاً طويلاً عن الجانب اللغوي لهذه المادة يصب في معاني التحوّل والتغيّر والتبدّل ، قال :(الدُّولَة اسم الشيء الذي يتداول ، والدَّوْلَة الفعل والانتقال من حال إلى حال) ، (ويقال : تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاورناه فعمل هذا مرّة وهذا مرّةً)، أما ابن فارس(٣٩٥هـ)فقد أرجع مادة (د و ل)إلى أصلين رئيسين (أحدهما يدل على تحوّل شيء من مكان إلى مكان ، والآخر يدل على ضعف واسترخاء)، وقال الزَّبِيديّ (١٢٠٥هـ)(وتداولوه أخذوه بالدول وتداولته الأيدي أخذته هذه مرّة وهذه مرّة) واستدل بقوله تعالى :" وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" ال عمران : ١٤٠ ، أيّ : (من فرح وغمّ وصحّة وسقم وغنى وفقر ، والدّولة الكرّة)، ولعلّنا إذا طوّفنا في معجمات اللغة فلن نخرج عن هذه المعاني وهي (التبدّل والتحوّل...).

التداولية في الاصطلاح :

أما الجانب الاصطلاحي للتداولية (Pragmatics) عند المتقدمين من اللغويين العرب فليس هناك ما يشير إلى استعمال هذا المصطلح بهذا المضمون الذي استقرّ أخيرًا على أنها تهتم بدراسة استعمال اللغة ، أمّا من وجهة المضمون فهناك إشارات كثيرة على معرفة العرب ذلك ، قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ)"فالتّداول في الأصل تفاعل من دالَ ، ويكون ذلك في الأشياء والكلام ، يقال كلام مداول ، ثمّ استعملوا داولت الشيء مجازًا، إذا جعلت غيرك يتداولونه ، وقرينة هذا الاستعمال أَن تقول بينهم" ، فالجانب التطبيقي للتداولية موجود عند العرب ، وهو ظاهر جليّ في بعض أبوب البلاغة كالخبر والإنشاء ، وقد بيّنها الدكتور مسعود صحراوي في دراسته (التداولية عند العلماء العرب)، وتحديدًا في تقسيمات العرب للخبر والإنشاء ، ثمّ إنّ هذا الأمر له علاقة بجزء مهم وكبير من التداولية ، وهي نظرية الأفعال الكلامية ، وتمثلها دراسة طالب سيد هاشم (نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب) فضلًا عن الكثير من الدراسات التداولية التي أقيمت على الجهود اللغوية العربية ، منها على سبيل المثال لا الحصر على كتاب سيبويه كدراسة إدريس مقبول (الأسس الإبستمولوجية و التداولية للنظر النحوي عند سيبويه)،و(قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني)للجزائرية (ثقبايث حامدة)وغيرها من الدراسات التي تثبت وجود التداولية في التراث العربي من جهة التطبيق والاستعمال.

إنّ إيجاد تعريف للتداولية يلم شعثها ويجمع متفرقها لهو أمر من الصعوبة والعسر بمكان ؛ لأسباب منها أنّه منهج يتقاذفه مصادر معرفية عديدة وقبل ذلك فإنّ ترجمة المصطلح (pragmatism) غير مستقرة _أصلاً_ بين النفعية والتبادلية والذرائعية والمقامية والسياقية وسواها ، مع القول :إنّ التداولية (ليست علماً لغويّاً محضاً بالمعنى التقليدي علماً يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة) حتى استقر على مصطلح التداولية من عند الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن سنة ١٩٧٠ وبعده أحمد المتوكّل عام (١٩٨٥م)وغدا شائعاً مستعملاً بين المتخصصين .

مصدر أغلب المفاهيم التداولية هو الفلسفة التحليلية ، أما أقدم تعريفات التداولية فنجده عند الفيلسوف شارل موريس (١٩٣٨م) فهي عنده (جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات) ، وهي بذلك قد خرجت من رحم السيميائية وفقاً لهذ التعريف ، وبعد هذا التعريف تطور المفهوم التداولي كثيراً ، ووضعت تعريفات عديدة ، ثم إنّنا لا يمكن إرجاع التأسيس إلى أحد ما مثلما تساءلت (أرمينكو)عن مؤسس التداولية فأجابت (بأنّ علينا

استدعاء أسماء كفيتغنشتاين وبيرس وكارناب وموريس وآخرين كذلك... لقد ولدت التداولية تحت علامة التعددية دون هوادة) وليس من شأن هذا البحث الغوص في الجانب النظري للتداولية ؛ لأنّه إذ ذاك يجب العودة إلى الكثير (من كتابات اوستن Austen(١٩٦٢)وجرايس Grice(١٩٧٥)وسيرل Searle(١٩٧٥)وليكوف Lakoff(١٩٧٣)وليتش Leech(١٩٨٣) وهاليداي Halliday(١٩٨٥) وغيرهم)؛ ولذلك سنذهب إلى التعريفات الحديثة ، أو التي استقر عليها التداوليون نوعاً ما ؛ فالتداولية لاتدرس البنية اللغوية ذاتها ، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة) وهي بذلك تختلف عن البنيوية الشكلانية التي تتعامل مع النصّ تعاملاً وصفيّاً مقطوعاً عن المؤثرات ، وهو بذلك يعدّ نصّاً غير محدد فيها تدرس التداولية استعمالاً للغة في الطبقات المقامية المختلفة باعتبارها (كلاماً محدداً ، صادراً من متكلم محدد ، وموجهاً إلى مخاطب محدد ، بلفظ محدد ، في مقام تواصلي محدد ، لتحقيق غرض تواصلي محدد).

المبحث الثاني
الخطاب والتواصل ووسائله

في اللغة والاصطلاح :

الخطاب في اللغة من الخطب ،وهو (الشأْن أَو الأَمر ،صغر أَو عظم ؛وقيل :هو سبب الأمر يقال :ما خطبك؟ أَي: ما أَمرك؟ وتقول: هذا خطب جليل ، وخطب يسير ،والخطب :الأَمر الذي تقع فيه المخاطبة)وأكثر وروده في القرآن الكريم بمعنى الأمر والشأن ،كقوله تعالى (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلمرْسَلُونَ) الذاريات ٣١.

والمعنى (قال إبراهيم للملائكة: فما شأنكم : ما أمركم أيُّها المرسلون؟)، وفيه معاني أخرى، بعيدة عن موضوع البحث.

أمّا الجانب الاصطلاحي : فـ(الخطاب هو القول الذي يفهم المخاطب به شيئاً) والخطاب عند السيوطي (٩١١هـ) هو (الكلام الذي يفهم المستمع منه شيئاً)وعرّفه محمود عكاشة بأنّه القول الموجه المقصود من المتكلم الى المخاطب لغرض التفهيم ؛إمّا مباشرة أوبصورة غير مباشرة في سياق التواصل وينبغي القول بوجود أنواع من الخطابات ، وهي ليست نوعاً واحداً ذكر الكفوي (١٠٩٤هـ)من الخطابات القرآنية (خطاب التهييج نحو (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)وخطاب الاستعطاف نحو(يا عبادي الذين أسرفوا) وخطاب التجنب نحو (يا أبت لا تعبد الشيطان)،وخطاب التعجيز نحو(فأتوا بسورة). وثمّة علاقة بين الخطاب والنصّ ، مما يفرق بين هذه العلاقة ويوضحها هو التواصل(Communication) (فالخطاب في لفظه شكل لغوي في سياق تفاعلي أو تواصلي ، فإنّ اجتزئ من سياقه التواصلي صار نصّاً ... فالفرق بين الخطاب والنصّ أنّ الأول يزيد على الثاني بالتواصل والتفاعل بين طرفين) وجعل حمداوي (أنّ التداوليات النصّية تعاملت مع الخطاب ككلية عضوية متسقة ومنسجمة ، بل اعتبرته جملة نصّية كبرى ، يمكن التعامل معها كالتعامل مع الجملة اللسانية) وعلى الرغم من أنّ إيجاد تعريف واضح للنصّ هو أمر ليس سهلاً ، ولا يمكن الوصول إلى تحديد واضح قاطع له لكن يمكن تعريفه بأنه (جهاز عبر لغوي يعيد توزيع نظام اللغة بكشف

العلاقة بالكلمات التواصلية ، مشيراً إلى بيانات مباشرة تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها) وجدير بالذكر أنّ (العرب القدماء لم يقصروا عنايتهم على دراسة اللغة فحسب ، بل عنوا ـ أيضاً ـ بالمتكلم ، وأقرّوا بأهمية دوره في إنتاج الخطاب) وما يهمنا هنا تحقيق التواصل سواء أكان الملفوظ ينتمي إلى الخطاب ، أو إلى النصّ ؛لأنّ التداولية أقرب ما تكون إلى التواصل .

وسائل التواصل الاجتماعي :

قبل سنوات ليست كثيرة ربما لا تتعدى (١٩٩٥م) عندما عكفت مجموعة من التلاميذ في الولايات المتحدة الأميركية على إنشاء مجموعة خاصة للتواصل فيما بينهم ، وكانت تحت عنوان(classmates.com) قبلها لم يكن التواصل الإنساني كما هو عليه الآن ، بل كانت تواصلاً مباشرًا مشافهة وبصورة محدودة ،إلّا أنّ عالمنا المعاصر قد شهد الكثير من التغيرات حتى بات التواصل والخاطب مصطلحاً بارزاً ولا يمكن الاستغناء عنه ، وتعدّ وسائل التواصل الاجتماعي هي الحاضنة لنوع من أنواع الخطاب والنصّ الكثيرة ، كالخطبة الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية والمفاوضات التجارية والخطاب السياسي و المرافعة القضائية وغيرها حتي غدت شبكات التواصل الاجتماعي شيئاً من ضروريات الحياة لكثير من الناس ، وربما أفقدتهم التواصل الاجتماعي المباشر ،و أصابتهم بنوع من العزلة الاجتماعية باعتمادهم على التواصل الإلكتروني.

والخطاب المدروس له علاقة وثيقة بالتواصل ، قال محمود عكاشة في معرض كلامه على تحليل الخطاب إنّه (متصل بعلم الاتصال ،ويدرس قيمة الخطاب الحواري valeur dialogiquedu discours التي تكتسب شرعيتها منها من خلال تواصل المتكلم مع المتلقي) ،ولقد غدت مواقع التواصل الاجتماعي من أغزر الأماكن المشتملة على خطاب اللغوي البشري الذي يمكن تحليله في سياق العلوم اللغوية المحدثة كالتداولية للإفادة مما تحمله من فوائد تجرّها على هذا الخطاب ، محاولة لفهمه ومن ثم فهم الباثّ لهذا الخطاب وهو الإنسان.

وقبل الحديث عن وسائل التواصل أو مواقع التواصل لابدّ من إيضاح هذه المفردة (التواصل) وهي الآن الشغل الشاغل للإعلام العربي والعالمي ، فالتواصل مصدر للفعل (تواصلَ يتواصلُ تواصلاً) وهذا الفعل يدل على المطاوعة (وهي قبول فعل الفاعل) ، أي أنّ الفعل لا يكون من طرف واحد بل يكون مشتركاً بين الاثنين ، وهو ما يحقق التواصل بأبلغ صورة واللغة أداة لهذا التواصل ؛ لأنّها (نمط اجتماعي منظم يتواصل بها البشر ، ويتفاعل بها الواحد مع الآخر بواسطة الرموز الاعتباطية المسموعة المنطوقة المعتادة استخدامها) والتواصل لغة ضد الفصل ؛أي أنّ يصل ويربط شيئاً بشيء آخر ويبلغه إياه ، أماّ التواصل اصطلاحاً فلا يختلف عن المعنى اللغوي إلاّفي التطبيق والتمثيل ، فقد ورد ان التواصل (Communication)هو الايصال والتبليغ ، وفقاً لقاعدة تواصلية يسيرة وسهلة (حيث تحدد العملية التواصلية كتبليغ لمعلومة إلى متلقٍّ بواسطة قناة اتصال ج) ولعلّ ممن فصّل القول جيداً في هذا المصطلح ـ بحسب اطلاعي وإلا فهي مسبوقة من باحثين آخرين لم أطلع على أعمالهم ـ هي الأستاذة (سامية بن يامنة) في بحثها الموسوم (الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية)وقد استغرق البحث في المصطلح وتاريخه وماهيته صفحات ليست قليلة من بحثها الآنف الذكر .

وسائل التواصل كثيرة ومتنوعة ، وليس من شأن البحث إيرادها وإحصاؤها بل ذكرها على سبيل التمثيل ، ولعلّ من أهمّ هذه المواقع (الفيس بوك facbook) وهو (موقع ويب للتواصل الاجتماعي يمكن الدخول إليه مجاناً ، وتديره شركة فيس بوك محدودة المسؤولية) . إذن هو موقع للتواصل الاجتماعي في أصل وضعه ، لكنّه توسّع فأصبح مشتملاً على

أصناف من الخطابات والفعاليات ، ونشر النشاطات الاجتماعية والعلمية والرياضية والسياسية وغيرها ؛ فقد تعدى الجانب الاجتماعي الموضوع له ؛ ولهذا توسّع توسّعا كبيراً ، وأصبح أشهر موقع تواصلي على الشابكة الدولية ، مع الإشارة إلى تعدد المواقع والوسائل الأخرى المنافسة مثل (تويتر(Twitter ،وكذلك (جوجل +GooglePlus)،و(الوتس آب WhatsApp) ، و(الإنستغرامInstagram) وغيرها ، وكل موقع أو برنامج له طريقته الخاصة في التعامل مع مستخدميه .

المبحث الثالث

الجانب التطبيقي (تداولية الخطاب في وسائل التواصل)

إننا نجد الكثير من الدراسات المعنية بتناول وسائل التواصل الاجتماعي قد ركزت على الخطر الثقافي الذي بدأ يداهم المجتمع العربي ، ولاسيما من خلال لغته فضلاً عن عاداته وتقاليده وذلك من خلال بعض الظواهر اللغوية كالكتابة بالحروف اللاتينية ، وكثرة الأخطاء الإملائية مما يمثل خطراً على هذه اللغة وجعلها بعضهم من وسائل إضعاف الذاكرة اللغوية العربية . ونحن هنا نحاول التقليل من غلواء هذا الخطر _بحسب ظنّي_ من خلال بعض العلوم اللغوية المحدثة ، ومنها التداولية وتعريفها وإشاعتها ؛ لأن هذه العلوم والمناهج الحديثة كالتداولية وغيرها توسّع من افق نظراتنا الى الظواهر اللغوية إذا أحسنا فهمها وتطبيقها دون تعسف ولا إسقاط مستأنسين الى تراثنا اللغوي الضخم العظيم في نصوص أئمته ، ومعتمدين على الأسس اللغوية المثبتة في عصرنا حتى صارت بمنزلة الحقائق العلمية الثابتة ؛ لأننّا واجدون كثيراً من المتابعين لمواقع التواصل الاجتماعي يوجهون نقدهم اللاذع لبعض الأساليب التعبيرية مخطئين مستخدميها ؛ولعلها ليست خطأ ؛لأنّها يمكن أن تدخل تحت باب التداولية في الخطاب ،والأدهى من ذلك والأمرّ أنّ قسماً كبيراً من النقّاد هم ممن لهم فضل اتصال باللغة وعلومها ،ومع ذلك ينظرون نظرة لغوية معيارية بحتة متناسين أنّ الرسائل والخطابات (نادراً ما تكون حادية المعنى واضحة واحادية المعنى ، بل إنّها على العكس من ذلك تتضمن تعدداً دلاليّاً) وهذ ما يتعلق بالرسالة نفسها المعبر عنها آنفاً بالرمز (ج) فهي منفتحة دلاليّاً مما يجعلها داخلة في الباب التداولي أشدّ الدخول ، أمّا ما يتعلق بالمستقبِل أو المتلقي فإنّه (لا يكون مجرد مسجل سلبي للمعطيات المرسلة) بل تتحكم جملة عوامل ثقافية واجتماعية ونفسية في تفسير الرسالة ، وليس الأمر متوقفاً على المعنى اللغوي البحت للخطاب فقد ولّى عهد البنيوية السوسيرية الذي يفسر النصوص والخطابات تفسيراً منقطعاً عن واقعها الاجتماعي والثقافي والنفسي ؛ أي أنّنا هنا نسير على الطريقة التي يراها محمود عكاشة من أنّ الخطاب هو (الشكل التفاعلي ، وليس النصّ اللغوي الثابت) أي أنّه يبتعد عن الألسنية الشكلانية formal lingustics(التي تهتم بالخواص المجردة للغة البشر ، ولا تملك سوى اليسير عن تحليل ما يقول الناس أو يفعلون) وهذا بعيد عماّ نحن بصدده ، بل إنّ التحليل التداولي للخطاب في وسائل التواصل الاجتماعي مما يقرّب الإنسان من أخيه الإنسان ، وهذه مهمة اللغة أنّها وسيلة تقريب لا مظنّة إبهام وتبعيد ، وإنّ فهم المنظور التداولي للخطاب مما يحقق ذلك . أول الأمثلة التي نبدأ بها ما ذكره أحد الأعلام

اللسانية في عالمنا العربي ، وهو الدكتور محمد محمد يونس علي فقد ذكر في صفحته على الفيس (يبدو لي أنّ أغلب التغييرات التي تحدث في البنية السطحية غير مجدية ، نحتاج إلى تغييرات جذرية في البنية العميقة) وهو هنا يتحدث عن الواقع السياسي والاجتماعي المزري في بلداننا العربية ، إلّا أنّه عبرّ عن ذلك بطريقة تداولية لا يفهمها كل قارئ ؛ لأنّه أمر يعتمد على (كفايتهم الثقافية أو الموسوعية مجموعة المعارف الضمنية التي يملكونها عن العالم والأيديولوجية) وهي ليست بطريقة مباشرة ، وهو أمر بدهي حسب تصور (تشومسكي)؛ لأنّه(بالإمكان مبدئيّا افتراض توفر الفرد على قدرة نحوية تامّة تمكنه من إنتاج جمل سلمية تركيبيّاً ودلاليّاً دون توفره على قدرة تداولية تمكنه من استعمال هذه الجمل بطريقة مناسبة) وقد استعار هنا من (تشومسكي) مقالته هذه ، وهذا المصطلح فسّره بما هو متداول الآن في نظريته النحوية ، وهو سماّه (البنية العميقة Deep structure) أي المعاني التي يمتلكها الإنسان في عقله التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى البنية السطحية الظاهرة وهي اللفظ المنطوق أو التراكيب والجمل ، وعلى الرغم من هذه الاستعارة إلّا أنّه يجب الإشارة إلى أنّ (تشومسكي) في نظريته اللسانية يعتمد (في صياغة فرضية متكلم ـ مستمع مثالي لا تتأثر معرفته اللغوية بظروف الإنجاز الفعلي) فلا يظنّ أنّ الاستعارة هنا تجعل من تشومسكي تداوليّا . لقد أسقط الدكتور محمد محمد يونس علي مقولته هذه على واقعنا إسقاطاً تداوليّاً مستعيناً برأي (تشومسكي) في هذه المسألة ، وملخصها أنّ اللغة الإنسانية تتوفر على بنيتين ؛ الأولى البنية العميقة وهي الأفكار ، والثانية البنية السطحية وهي الألفاظ ، ولاشك أنّ الأولى هي الأهم ، وهذا ما يؤكده (ما كتبه تشومسكي من مقالات وكتب سياسية متحدياً بها علماء النفس والاجتماع وغيرهم من العلماء الذين تسعى الحكومات وراء نصائحهم وخبراتهم وهم في الحقيقة ليسوا بعلماء وإنّما هم يحاكون يائسين المظاهر السطحية(SurfaceFeatures للعلوم فقط دون حقيقتها) فالتغير الذي يريده محمد محمد يونس علي يجب ألا يكون تغييراً شكليّاً سطحيّاً لأنّ هذا لا يغير من الامر شيئاً بل يريده تغيراً جوهريّاً فـ(إنّ الله لا ينظر الى اجسادكم ولا الى صوركم ، ولاكن ينضر الى قلوبكم ، وأشار بأصبعه الى صدره) فالتغيير الحاصل على الهيئة والشكل والجسد والصورة (البنية السطحية) لا يحقق المطلوب ، بل إنّ التغير يجب ان يكون بالأفكار ولأعمال والقلوب (البنية العميقة) ولذلك كانت الردود من بعض المتدخلين على صفحة الدكتور يونس كانت ردوداً تمثل فهماً عميقاً للمغزى التداولي ، قالت آمال محمد جمو (هذا التغير ينتظره كل عربي من المحيط للخليج...) وهو لاشك تغير سياسي واجتماعي وما الى ذلك ؛ولذلك نصّ عليه الدكتور يونس قائلاً: (نحن نتحدث الآن عن التغييرات الاجتماعية) وجدير أن أختم هذا المثال بمداخلة لأحد الأصدقاء في صفحة الدكتور يونس ، وهي مداخلة مهمة قد تكون سلطت الضوء على أحد أهداف البحث ، وهو العودة لرد الاعتبار للعلوم الإنسانية ولاسيما اللسانية واللغوية عموماً بعد طغيان المادية على حياتنا حتى أصبحت الحلول المادية لها الأولوية في التفكير قالAhmed Bedra :(عندما يتأثر علم التحليل السياسي بعلم الألسنية \اللسنية\اللسانيات ، او عندما تتناول الظاهرة الاجتماعية والسياسية بمنطق ومصطلحات العلوم الإنسانية وليس العلوم الاجتماعية ، وهذا زمن يحتاج فعلاً الى أن نعيد فيه الاعتبار للعلوم الإنسانية في وقت ماتت فيه الإنسانية وفقد الإنسان فيه ذاته ومفهومه).

الأفعال الكلامية :

من المفاهيم التي يقوم عليها البحث التداولي الأفعال الكلامية(speech act theory) أو كما يعبر عنها (كيف تفعل الأشياء بالكلمات)والمعنى أنّنا عندما نتلفظ الكلمات فإنّنا نقوم بعمل معين بهذا القول ، وعلى ذلك فالقسمة العملية هي قسمة ثنائية الأولى ما يفعله الإنسان بيده حقيقة ، والثانية ما جاء بها التداوليون بدأً من اوستن ثم سيرل فإنّهما

يُعدّان من ابرز مؤسسي الوجهة التداولية وأفعال الكلام وهي أنّ الإنسان قادر على إنجاز الأفعال بالكلمات الا أنّنا نجد في صفحات الفيس بوك ما يمكن أن يخرج عن القسمة الثنائية أعلاه الى تقسيم ثالث ، يقول محمد موسى الوحش: (القوة ليست دائماً فيها نقول ونفعل ، احاناً تكون فيها نصمت عنه ... في ما نتركه بإرادتنا ... وفي ما نتجاهله عن فهم) ولعلّه قد أتى بشيء مكمّل لنظرية أفعال الكلام(Speech act theory) القائمة على قول شيء لإنجاز فعل ... هو هنا لا يقول شيئاً لكنّه ينجز فعلاً والملاحظة أنّه ذكر القسمة الثنائية آنفة الذكر بقوله: (نقول أو نفعل)، وعلى الرغم من أهمية ما يقول إلاّ أنّه لم يقم أحد بالتعليق على هذه القولة ، وهو ما يحتمل مؤشرين ؛الأول عدم فهم المخاطبين قولته هذه ، أو أنّهم متفقون معه تماماً ، وهذاما نرجحه ، وإن جهلوا نظرية الأفعال الكلامية.

<u>الافتراض المسبق :</u>

من الأمور التي يقوم عليها البحث التداولي الافتراض المسبق ، وهو أنّه (في كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليهم بينهم) وهي مزيّة التداولية بصورة عامة ، ولولا هذا الافتراض لكان الجانب التواصلي للخطاب الإنساني عبثاً ؛ لأنّ هذه الافتراضات تشكل (الخليفة التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل) يقول أيمن فرج الهوادي في صفحته (٥ب٥ربي يفرج) والمتأمل في هذا الكلام لا يفهم منه شيئاً ؛ لأنّه عبارة عن أشبه ما يكون بمعادلة رياضية مع دعاء بالفرج ، ومع هذه الضبابية في الخطاب تأتّى لـ(ابن أحمد المنصوري) أن يفهم المراد قائلاً له :(٥ب٥خير ظلام دامس) ، وهو يريد (خير من ظلام دامس) وهو بذلك يشير إلى انقطاع الكهرباء في مدينته ٥ ساعات بالتناوب ، وهو عين ما قصده أيمن فرج الهوادي ، وههنا قد تحققت العلمية التواصلية لوجود معلومات افتراضية مسبقة بين المخاطبين ، وهي من الأمور التي يقوم عليها البحث التداولي والتي يستخدمها رواد التواصل الاجتماعي (الفيس بوك) علموا أم لم يعلموا ، ومن ذلك مثلاً ـ أيضاً ـ ما ذكره Muhanned Alhiloبقوله :(مساء الرُّطَب ... لأنّ الورد مات من الحرّ) فالجملة الثانية معروفة ، أمّا الأولى فليست كذلك ما لم تكن هناك افتراضات مسبقة بين المتكلم والمخاطبين ولا سيما ضمن البلد الواحد أحياناً ، وهذا الافتراض هنا يقع على لفظة الرَّطْب ، ومعناه (ضد اليابس والرَّطْب : الناعم رَطُبَ بالضم ، يرْطُبُ رُطوبة ورَطابة ، ورَطِبَ فَهُوَ رَطْبٌ ورَطِيبُ ، ورَطَّبْتُه أَنا تَرْطِيباً وجارِيَةُ رَطْبَة : رَخْصَة) وهلمَّ جرّاً من هذه المعاني ، إلّا أنّ ما قصده المتكلم بقوله : (مساء الرطب) ، أنّه (نضيج البسر قبل أَنْ يتمر ، واحدته رطبة قَالَ سيبَوَيْهِ : لَيْسَ رُطَبٌ بتكسير رُطَبَةٍ ، وإنما الرُّطَب كالتَّمْرِ واحد اللفظ مذكر : يقولون هَذَا الرُّطَب ، وَلَوْ كَانَ تَكْسيراً لأَنّثوا وَقَالَ أَبو حَنِيفَةَ الرُّطَب البُسْرُ إذا انهَضَمَ فَلانَ وَحَلَا) فإذا كان الورد يموت بالحر فإنّ الرطب يلين ويحلو بهذا الحر ؛ لذلك علّق أحد المتدخلين بقوله (وخاصة رطب البرحيّ ، ما أجمله).

الاقتضاء أو الإضمارات التداولية :

من المسائل المهمة في الجانب التداولي هي تلك الجمل ذات المحتوى القضوي ، وهو (مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة الإسناد) إلّا أنّ الكثير من الخطاب في وسائل التواصل الاجتماعي لا ينحو هذا المنحى إلاّ شكليّاً بل يذهب الى أن يكون (ألمدلول في مضمراً ، إمّا لضرورة صدق ألمتكلّم ، وإمّا لصحّة وقوع المْلفوظ به) أي أن تكون هناك معانٍ (لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة ولكن للسياق دخلاً في تحديدها والتوجه إليها) ومن ذلك ــمثلاًــ ما ذكره Shaker Faris Tuleab(المحامي "الجيد" يعرف القانون ،المحامي "الممتاز" يعرف القاضي)فالمحتوى القضوي للمعرفة واضحة لا لَبْس فيه إلاّ إنّ المحتوى الضمني المؤدي الى البعد التداولي هذا المحتوى واقع في المعرفة

الثانية (معرفة القاضي)هذه المعرفة التي تجعل الباطل حقاً والحق باطلاً ، وهي ليست معرفة شخصية ، فهذا لا يلتفت إليها في القضاء ، ومن الأمثلة الأخرى الدالة على محتوى قضوي يختلف عن المعنى الضمني الذي تدل عليه ما ذكره د. محمد الهيتي في صفحته على الفيس (قدْ صرّتِ البكرةُ يوماً أجمعاً) فقد نقل هنا شاهداً نحويّاً من شواهد ابن عقيل ويدل محتواه القضوي على أنّ صرير البكرة على البئر لم ينقطع في ذلك اليوم ، وقد استشهد به لقضية نحوية معينة ليست لها علاقة بالمعنى المراد هنا (وإنّما استعمل الشطر استعمالاً تداوليّاً...فيه دلالة على أنّ القوم في ذلك اليوم لم يتوقف اخذهم الماء من البئر وآية ذلك أنّ البكرة مازالت تصدر صوتاً في ذلك اليوم من أوله إلى آخره) ، وقد ذكر صاحب الصفحة شطراً منن تأليفه كمّل به شطر البيت ، وهو شطر لا يخلو من جانب تداولي بقوله:

قدّ صرّتِ البكرةُ يوماً أجمعَا وقدْ أنَّ الشعبُ عقداً أكتعَا

وواضح ما يعنيه صاحب الصفحة من معنى ضمني في شطره المؤلف هذا.

<u>ظواهر تداولية جاهزة</u>

من كل ما سبق من أمثلة قليلة هي في حقيقتها نماذج لتطبيقات عظيمة الحجم والاستعمال في وسائل التواصل ،اقوال كل ما سبق ، ومن واقع التطبيق التداولي لمستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي علموا أم لم يعلموا فقد غدا هذا الاستعمال او بعض منه يمثل ظواهر تداولية قارّة ، او هي أقرب للقواعد الثابتة بحيث إذا أطلقت عُلِم المقصود بين أبناء البلد الواحد على أقل تقدير ، وبشيوع البحث التداولي في وسائل التواصل يمكن أن تعمّم الدلالة على أبناء اللغة الواحدة بما يُقَرب بين اللغات المحلية في مجتمعاتنا العربية ؛ لأنّ وسائل التواصل الاجتماعي ما عاد الاسم ينطبق عليها تماماً بل غدت وسيلة إعلامية عابرة للحدود بين الدول ، وأصبحت تعمل على تلاقي الأفراد الذين لا تربطهم العلاقات الاجتماعية مع بعضهم ، فلابدّ والحالة هذه من فهم الخطاب المتداول بينهم ، ولاسيما إن خرج عن اللغة العربية الفصيحة ، ومن ذلك بعض أساليب التهكم المستعملة في صفحات الفيس _مثلاً_ في المجتمع العراقي ، ومن ذلك قولهم (ما يكعد=يقعد راحة فلان) خطاب من شخص متهكم لآخر أبدى رأيه في قضية (علمية أو سياسية أو اجتماعية أو رياضية أو غيرها) هو لا يفقه شيئاً ، ومعنى الخطاب أنّ هذا الشخص الذي أبدا رأيه (ما يقعد راحة) أي يتحدث كثيراً عن قضية ما حاله حال أي فرد تطرح أمامه قضية فلابدّ أن يتدخل لتصحيح مفهوم أو إقرار ،ثمّ شبّهه بفلان (سياسي أو عالم أو نجم رياضي أو غيره) وهنا حذف أداة التشبيه إيغالاً في التهكم ، فمثل هذه الجمل تتوفر على الجانب الاستعمالي ؛لأنّ معناه الحقيقي يختلف عن معناها الوضعي في لسان العرب ؛ لأنّ المعنى الوضعي لـ (ما يقعد راحة) هو يثير المشاكل ، ومعنى(فلان)معروف إلّا أنّ الجانب الاستعمالي أخذنا إلى الجانب التهكمي بالمخاطب ، وابتعد عن المعنى اللغوي الحرفي للجملة .

إذن باتت بعض الجمل جاهزة لاستخدامها مباشرة في سياقات تداولية مختلفة مع بعض التغير في الجانب المعجمي ، أو المفردة اللغوية الدالة على السياق الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي أو غيره ، وسنمثل هنا بجملة (ما يكعد راحة فلان) وهي مستخدمة في العراق كثيراً ، وبتعبير اشد وضوحاً أنّ هذه الجملة هي نتاج للخطاب اللغوي في وسائل التواصل الاجتماعي ؛ أي أنّها لم تكن موجودة قبل ثورة التواصل الاجتماعي ، ومعناه اللغوي الوضعي (المعجمي أو التركيبي أو الدلالي) يختلف عن معناها الحقيقي أو (التداولي) والمهم في الأمر أنّها جمل تداولية جاهزة تتطلب من المستعمِل أنّ يغير فيها شيئاً يسيراً لتصبح جاهزة لاستعمالها في السياق المطلوب .

علق احدهم على صورة رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي وهو يوقّع على كرة قدم أمامه(ولا يكعد راحة زيدان) مشبّهاً رئيس الوزراء العراقي بالمدرب الشهير (زين الدين زيدان) مع حذف أداة التشبيه مبالغة في التهكم !هذا التهكم الذي فهمه بعضهم فهماً مزدوجاً ، تهكم من هذا الشخص ، وقد صرّح به صاحب الصفحة نفسه بقوله :(هههه شوفي راسه متوازي سطوح مستطيلة لينا أحمد) أي انظري إلى رأسه فهذا وصفه ... أمّا الفهم الآخر للتهكم فقد أشارت إليه لينا أحمد نفسها بقولها : (لو بي طول جان سوة بينا) أي : لو كان طويلاً لفعل بنا الأفاعيل في إشارة إلى أنّه قصير القامة ، وأشار إلى الجانب التهكمي الآخر أبو زهراء البركاوي في مداخلته بقوله:(... وفيها رسالة أيضاً سألعب بكم طوبة أيها الشعب العراقي اكثر من ذي قبل) ومعنى التهكمي هنا ليس على رئيس الوزراء العراقي بل له او على المخاطبين في انه سيلعب (طوبة=كرة) بالشعب العراقي وما توقيعه ذاك إلّا لبدء المباراة التي سيكون ضحيتها الشعب ، وأنّه(ما يكعد راحة) أي: لن يهدأ له بال حتى يعمل بالشعب ما يريده ، كما يفعل المدرب (زيدان) بالخصوم في المباراة ، وهكذا تجد التعليقات تحتمل ابعاداً تداولية في كثير منها.

ان هذه المقولة (ما يكعد راحة) نجدها كثيرة في صفحات الفيس بوك ولاسيما عند العراقيين فقد نشر (صابر الطوالبة) على صفحته صورة لأحد الإمعات الدجالين وهو يمشي في الشارع مع حمايته بقوله "ولا يكعد راحة فاندام" في إشارة الى الممثل العالمي فاندام الذي يمثل أدوار البطولة والشجاعة ذات المشاهد القاسية ، بينما هذه الإمعة لا يساوي شيئاً ، بل وصفه الطوالبة بالجرذ ، وفي سياق اخر نشر "د.محمد عبد الله" مقطع فيديو لرجل كبير في السن يحاول عبور نهر صغير بطريقة تشبه لاعبي الطفر بالزانة المعروفة في ألعاب القوى ، وهذا الرجل يحاول ومرتين وأكثر ؛ فوضع تعليقاً بقوله: (غير يكعد راحة طرزان)، وهنا استبدل بـ(ما) (غير) على عادة اللهجة العراقية التي تكثر من هذا الاستبدال ؛ لأن كلمة (غير) تستعمل للنفي كثيراً عند العراقيين في لهجتهم ، ثم شبّه هذا الرجل بالشخصية الأسطورية المعروفة (طرزان) تهكماً وتنكيتاً من أنّه رجل كبير في السن ، لكنّه يحاول أن يكون مثل (طرزان) في قوته ، وأنّه كان يعبر الأنهار والأشجار بطريقة التسلق والطيران ، كما يفعل الاعب الأولمبي الذي يطفر بالزانة.

هذه أمثلة من الاستخدام الكثير لهذه التداولية التي أصبحت من الجمل الجاهزة لاستعمالها في أي سياق تداولي مع بعض التغير في المفردة المعجمية ؛ لإعطاء الدلالة المتغياة ، فههنا مثّلنا بمفردات (زيدان_ فاندام_ طرزان)فالأولى مدرب مشهور ، والثانية ممثل عالمي ،والثالثة شخصية أسطورية وهلّم جراً فمن الممكن استخدام (ما يكعد راحة ...) لمختلف المعاني التداولية بحسب السياق الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو غيره ، فهذه الجملة أصبحت من الجمل الجاهزة التي تشبه في نظرنا الجملة الأساسية ، أو بنية العبارة في النحو التوليدي عند تشومسكي ، ثم تتغير وفقاً للقاعدة التحويلية حسب المطلوب من استفهام أو تعجب أو مبني للمجهول ، وهو تشبيه ليس إلاّ ، يختلف من جهة المضمون ، لكنّه يشبهه من جهة الشكل ، فالجملة الأساسية (ما يكعد راحة فلان) والجانب التحويلي يكون على كلمة فلان بحسب السياق.